

تأملات فی أعظم آية من

كتاب الله

لفضيلة الشيخ الدكتور

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالى

برنامج من إذاعة القرآن الكريم

٠٧-٠٩-١٤٣٠هـ

أعد المادة سالم الجزائري

النسخة الإلكترونية الأولى

www.ajurry.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.
أمّا بعد،

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

أيها الإخوة المستمعون.. سبق معنا في الحلقة القادمة بيان
أهمية معرفة معنى كلمة (لا إله إلا الله) وأن معناها (لا
معبود حق إلا الله)، فكلمة (حق) خير محذوف مقدر دلّت
عليه نصوص الشرع، وقد سبق إيراد جملة منها في الحلقة
الماضية.

وفي هذا المقام أشير على وجه التنبيه والتحذير لبعض
المفاهيم الخاطئة التي وجدت وقالها بعض الناس في معنى كلمة
التوحيد (لا إله إلا الله) مع بيان أثر تلك المفاهيم الخاطئة
على سلوك ومناهج قائلها.

فمن قائل أن معنى (لا إله إلا الله) أي لا موجود إلا الله،
أو لا إله ممكن إلا الله، فقدّر المحذوف بموجود أو بممكن
فماذا يترتب على هذا التقدير الخاطئ، لاشك -أخي
المستمع- أن هذا التقدير باطل، وقد دل على فساده وجود
آلهة كثيرة عبدت بالباطل، فيؤول حينئذ الأمر إلى أن كل
إله وجد وعبد فهو الله، فترجع الكلم إلى أقبح عقيدة
وأفسد نحلة وهي عقيدة الحلولية؛ الذين يقصدون بالعبادة كل
شيء، ويقولون: إن الله حالّ في كل مكان. تعالى الله عن ما
يقول الظالمون علواً كبيراً فيقعون في خطأين فادحين:

إخلالاً بالعبادة.

وإخلالاً بالتزيه بتزيه الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-

الله جل وعلا يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ (٦٢)﴾ [الحج: ٦٢]، فلم يثبت هؤلاء علواً ولم يحققوا
العبادة التي خلقهم من أجلها وأوجدتهم لتحقيقها. فانظر إلى
ماذا يجر مثل هذا الفهم إلى أنواع من الانحرافات والزلل في
شأن التوحيد ومقامه العظيم.

ومن قائل أن معنى لا إله إلا الله: لا خالق إلا الله،
فهذا صحيح أن الخالق هو الله وحده؛ لكن هل هذا هو
معنى ومدلول كلمة لا إله إلا الله؟ ولو كان كذلك هل
يرفضها المشركون أم أنهم يقرّون بها؟ وقد قال الله -سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى-: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى
يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزحرف: ٨٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيْنَ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فهم يعتقدون أنه لا خالق إلا الله ولو
كان هذا معنى لا إله إلا الله لما رفض المشركون هذه
الكلمة؛ لأنها لا تصادم حينئذ عقيدتهم؛ ولكنهم فهموا معناها
وعرفوا مدلولها، وأنها تعني إخلاص العبادة لله وإبطال الآلهة
والمعبودات المزعومة.

ولهذا لما قال لهم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «قولوا: لا
إله إلا الله تفلحوا» أدركوا تماماً أن هذه الكلمة تعني
إبطال الملة التي هم عليها وهي عبادة الأصنام، وصرف العبادة
لغير الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وأنها تعني إخلاص الدين لله

سبحانه دون أن يتخذ معه شريك، فاستكبروا وامتنعوا ورفضوا وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص: ٥٠)، فامتنعوا من قول هذه الكلمة وقبولها؛ لأنها تبطل الآلهة التي يعبدون، ولو كان معناها لا خالق إلا الله لما ترددوا في قبولها والنطق بها، وفي الآية الأخرى قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) [الصفات: ٣٥-٣٦]، ولهذا واجبا على كل مسلم على علم ودراية بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بفهم معناها فهما صحيحا مستقيما مستمدا من كتاب الله جل وعلا نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

واعلم أيها الأخ المستمع الكريم أن في القرآن الكريم آيات كثيرة تفسير كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وتبينها بيانا شافيا واضحا كافيا، ومن خلال ما جاء في القرآن الكريم من نصوص كثيرة نتبين أن طريقة القرآن في هذا الباب وفي طريقة التوحيد قائمة على أصلين عظيمين هما: النفي الإثبات.

النفي العام للعبودية لكل أنواعها ولجميع أفرادها عن كل أحد إلا الله، وهذه الجملة النافية في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) تنفي نفيا عاما العبودية والتذلل والخضوع عن كل أحد سوى الله، نفيا عاما أي كان، لا نبيا مقربا ولا وليا من الأولياء ولا صالحا من الصالحين، ولا غيرهم فهي تنفي نفيا عاما لا يستثنى منه إلا المستحق، وهو الإله الحق رب العالمين جل وعلا، ومن سواه فهو داخل تحت النفي.

والجملة الثانية وهي الإثبات، فيها إثبات خاص بالتأله والتذلل والعبادة بكل معانيها وجميع أفرادها وأنواعها لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

لا يكون المرء موحدًا إلا بتحقيق هذين الركنين معا، ولو جاء بأحد الركنين دون الآخر لا يكون بتوحيد؛ بل يكون من أهل الكفر.

مثلا لو إنسانا جاء بطرف هذه الكلمة الأول الذي هو النفي دون الإثبات فقال: (لا إله) ووقف في هذا الحد دون أن يثبت يكون بذلك من الملاحدة أهل الإلحاد الجحود الذين عقيدتهم أن لا إله والحياة مادة.

وإذا جاء بالإثبات الركن الثاني دون النفي لا يكون موحدًا بل يكون مشركا، فمن قال مثلا: الله معبود دون أن ينفي العبودية عن سواه، فلا يكون بهذا الإثبات موحدًا ما لم ينفي العبودية عن كل من سوى الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

فالمشركون كانوا يثبتون ولا ينفون، يثبتون أن الله معبود ويعبدون ويحجون ويصلون ويقومون بأنواع من الطاعات؛ لكنهم لا ينفون العبادة عن سواه، والخصومة بينهم وبين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إنما كانت في هذا الأمر، فهم يثبتون أن الله موجود، ويقرون بأنه رب خالق رازق منعم وأن الأصنام ليس لها من ذلك شيء، يثبتون أنه -جل وعلا- تفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة وأن هذا من خصائصه، ولا ينسبون من ذلك شيئا للأصنام، وفي القرآن آيات كثيرة أنهم إذا سئلوا من خلقهم؟ من خلق السموات والأرض؟ يقولون: الله، يقرون بذلك.

أيضا يقرون بأنه معبود يحجون ويصلون ويقومون بأنواع من الطاعات؛ لكنهم لا ينفون العبادة عما سواه بل اتخذوا معه أندادا يسوونهم به في العبادة، قال الله -تعالى- مخبرا عنهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهم يحبون الله ولكن محبتهم لله ليست خالصة؛ ولكن جعلوا لغيره فيها شريكا، ولهذا إذا ألقوا في نار جهنم يقولون متحسرين نادمين ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ نَسَوِيَكَ بَرْبَ الْعَالَمِينَ (٩٨) [الشعراء: ٩٧-٩٨]، وهم لم يسووا أصنامهم برب العالمين في الخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير، وإنما سووه به في العبادة، فأثبتوا أن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- معبود؛ لكنهم لم ينفوا ذلك عن سواه بل جعلوا معه فيه الشركاء والأنداد.

فإذن لا يكون العبد من أهل التوحيد إلا بتحقيق ركني التوحيد اللذين دلت عليهما كلمة التوحيد.

الله وحده الموفق والهادي لا شريك له؛ وبهذا نصل إلى تمام هذه الحلقة، وإلى لقاء آخر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

